الفصل الثاني

الفلسفة الحديثة وهيجل

لقد اختفت المثالية التقليدية بعد أرسطو ولم تظهر إلا فى العصور الحديثة. فقد أهملها الرواقيون والابيقوريون . واعطاها الأفلاطونيون المحدثون صورة صوفية مشوهة ، أما المدرسيون فقد قدموا صورة كاريكاتورية عنها . والفلاسفة منذ ديكارت حتى لَيْبْنِتز لم يستطعوا إحياءها، وانما كان إحياؤها الحقيقى على يد «كانْت» وهذا لا يعنى ان «كانْت» قد تأثر بالمثالية اليونانية أو أنه يعبر عن الفلسفة الكلية تعبيراً تاماً ، ومع ذلك فقد كان رغما عنه، قريبا من المثالية اليونانية .

وقبل الكلام عن «كانْت» يجب ان نبين التأثير الكبير الذى كان لِسبينوزا على هيجل .

١ - اسبينوزا وهيجل :

لقد صاغ اسبينوزا المبدأ الهام القائل (كل تحديد فهو نفى) ، فأن نحدد شيئا أو نعينه يعنى أننا نعزله عن غيره، لأننا عندما نصفه بالبياض مثلا فإننا ننفى عنه بقية الالوان ، ان كل توكيد يتضمن النفى بالضرورة ، لقد كان هذا المبدأ هاما جداً عند هيجل . ولكنه اتخذ لديه الصورة المعكوسة : «كل نفى فهو تحديد او تعيين» . ولا مجال هنا لاعتراض المنطق الصورى الذى لا يجيز عكس الكلية الموجبة إلى كلية موجبة، ذلك أن النفى أيضا يتضمن التوكيد، لأننا عندما ننفى أن يكون شىء ما فى صنف معين ، فإننا نؤكد أنه مندرج فى صنف آخر.

ولهذا فإننا عندما نرى هيجل يتحدث عن «القوة الهائلة للسلب» عليها أن نذكر أن السلب عنده يمثل العملية الحقيقية للخلق . ذلك أن طبيعة الشىء «الموجبة» انما تتقوَّم بتعييناته. وبما ان كل تعيين فهو نفى، فإن طبيعة الشىء

الموجبة تتقوَّم فى أسلوبه . النفى إذن هو ماهية الشىء ، ونحن نعرف أن الجنس يتحول إلى أنواع بواسطة الفصول النوعية ، والفصل النوعى هو الذى يحدد نوعا ما عن طريق استبعاد أو نفى الأنواع الأخرى، وكذلك الأمر فى تحول النوع إلى أفراد إن هذه النظرة ليست عارضة فى فلسفة هيجل ، ولكنها قاعدة المذهب كله.

وقد أثر اسبينوزا فى نظرية هيجل المتعلقة باللامتناهى تأثيراً واضحا – فاللامتناهى هو ما لا حد له . ولكن المتعين هو المحدود ، لأن التعيين إنما يعنى الحد. ومن ذلك ينتج أن اللامتناهى هو غير المتعين . وبما أن غير المتعين هو ما لا يحمل عليه أى محمول فهو فراغ أو لا وجود ، والجوهر عند اسبينوزا هو فى الواقع هذا الفراغ غير المتعين . ولكن هناك فكرة أخرى عند اسبينوزا تقول إن الجوهر «علة ذاتية» ، فهو إذن ليس غير المتعين إطلاقاً . ولكن المعين لنفسه بنفسه ، فتعييناته لا تأتيه من خارج ذاته . وهذا يعنى أن الجوهر ليس مجرد اللامتعين . ولكنه المتعين بذاته . وهذا هو تصريف اللامتناهى عند هيجل كما سنرى بعد قليل .

٢ – هيوم وكانْت :

لقد سَلّم الفلاسفة المثاليون عند اليونان بأن العقل الانسانى قادر على معرفة الواقع، ولم يخطر فى بالهم أننا لا نعرف غير الظواهر ، ولكن هذه المشكلة قد طرحت بقوة عند «كانْت» فتساءل عما يمكننا معرفته وعما لا يمكننا معرفته، متأثراً فى ذلك بفلسفة هيوم .

لقد حاول هيوم أن يبين أن المفاهيم الاساسية مثل العلة والجوهر ليست سوى أوهام (فالعلية) تتضمن الضرورة والكلية، ولكن التجربة – وهى المنبع الوحيد للمعرفة عند هيوم – لا تقدم لنا الضرورة والكلية ، فالتجربة الحسية مثلا تخبرنى بأن شيئاً ما هو موجود، ولكنها لا تبين لى أنه يجب ان يكون موجوداً، التجربة تظهر لى أن البرد يجمد الماء ، ولكنها لا تبين أية علاقة منطقية بين البرد

وبين تجمد الماء . ثم ان التجربة قد أظهرت أن النار تولد الحرارة ، ولكنها لا تثبت لى أن النار سوف تولد الحرارة أيضاً فى المستقبل .

ومن هنا يستخلص هيوم أن العلية وهم لأنها غير مؤكدة من التجربة .

ولقد انتقد هيوم فكرة الجوهر متبعا فى ذلك منهج «برْكلى» فللحجر صفات عديدة كالبياض والقسوة الخ ... وقد تعودنا أن نقول أن وراء الصفات جوهراً يتصف بها ولكن التجربة تسمح لنا بمعرفة الصفات وحدها ولا تسمح لنا بإدراك الجوهر، ففكرة الجوهر إذن وهم مثل فكرة العلية .

لقد أحدثت هذه الأفكار اضطراباً شديداً لدى «كانْت» وحاول الإجابة على ما تثيره من أسئلة ، ففكرة العلية فكرة ضرورية كل الضرورة للعلم ، فإذا ما تهدمت تهدم العلم كله ، وليس المجال متسعاً لعرض الفلسفة الكانتية ويكفى أن نذكر بالنقاط الهامة الآتية :

المعرفة الهندسية تتألف من قضايا ضرورية وكلية من المكان ، وبما أن التجربة كما بين هيوم لا تولد الضرورة والكلية، فالمعرفة الهندسية لا تأتي من التجربة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المعرفة المتعلقة بالزمان كقولنا بأن اللحظتين لا توجدان معاً .

ولا يجوز أن يقال إن الضرورة والكلية آتيتان من كون هذه القضايا تحليليةً محضة. ذلك لأنها قضايا تركيبية ، فمهما أتأمل ٥ + ٧ فإنى لا أجد في المفاهيم المكونة لهذا الجمع العدد ١٢ . فهذه القضايا إذن سابقة على التجربة من جهة، وتركيبية من جهة ثانية ، إنها قضايا تركيبية قبلية . وهى ممكنة بفضل الصورتين القبليتين للمكان والزمان ، إذا هما شرطان لكل معرفة ممكنة . وهذا يعنى أن قوانين الهندسة والحساب هى قوانين فكرنا . ومن الطبيعى أن تكون كلية ضرورية ولا يقصد «كانْت» من قبلية الزمان والمكان أننا نعرفهما منذ الولادة، بل يرى أنها تُعْرَف من الناحية النفسية بعد التجربة ، ولكن المهم هنا أن الزمان والمكان يسبقان التجربة من الناحية المنطقية لا من الناحية الزمنية . ثم

إننا عندما نعرفهما بواسطة التجربة فإننا لا نعُدهما شيئين خارجين عن فِكْرنا، وإنما نعرفهما كمضمونين من مضامين فكرنا . وإن عدم التمييز بين الجانب النفسى الزمنى وبين الجانب المنطقى اساس لعدم فهم فلسفة «كانْت» وفلسفة هيجل .

إن صورة الاحساس إذن هى من نتاج الفكر، ولكن مادة الاحساس تأتينا من الخارج أى من الأشياء فى ذاتها . وهذا يعنى أن الشىء فى ذاته ليس فى المكان أو الزمان . إنه لا يمكن أن يُعْرَف .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى عندما نقول : (بعض الورود حمراء) فإن تَصَوُّر (الورد) وتصور (الأحمر) يأتيان من التجربة ، ولكن عندما نقول (بعض س هى ص) فإننا نكون بصدد قضية جزئية وهى تتضمن معنى الوجود أو الإيجاب . هذان المعنيان أو التصوران ليسا مشتقين من التجربة . إنهما مقولتان ، ومعروف أن «كانْت» يستخلص قائمة المقولات من قائمة الأحكام ... هذه المقولات صور بدون مضمون أو مادة ، وهى سابقة على كل تجربة . وهى لا تأتى من مصدر خارج عن العقل ، ولكن العقل نفسه هو الذى يطبقها على معطيات التجربة . وهذه المقولات تتصف بأنها كلية وضرورية ، فالشىء يمكن أن يوجد كما يمكن ألا يوجد ، ولكنه يجب أن يكون معلولا لعلة ما أو جوهراً . ولكن المقولات لا تسمح لنا بمعرفة الأشياء فى ذاتها فالشىء فى ذاته ليس جوهراً ولا علة وليس كثرة ولا وحدة .

وهذا يعنى أيضا أن الشىء فى ذاته، غير قابل للمعرفة ، وإذا كان الشىء كما نعرفه هو المظهر فإن الشىء فى ذاته هو الواقع الحقيقى . إنه موجود، ولكن معرفته مستحيلة .

لقد حاول «كانْت» أن يضع حداً للمعرفة ، إلا أن الفلاسفة الذين أتوا بعده مباشرة لم يقفوا عند الحد الذى أراد وضعه . والغريب فى الأمر أنهم تجاوزوا موقفه باسم فلسفته نفسها . وتفسير ذلك أنهم أخذوا عنه معانى الكلية

والضرورة والقبلية ورفضوا فكرة الشيء فى ذاته ، بوصفها فكرة متناقضة ، لقد قال «كانْت» بوجود الشيء فى ذاته لكى يجعل منه علة لاحساساتنا ، فالشيء فى ذاته علة من جهة ، وهو من جهة ثانية لا يمكن ان يكون علة لأن العليَّة مقولة ذهنية لا تصدق على الاشياء فى ذاتها ، وإذا قيل إن الشيء فى ذاته ليس علة ولكنه «أساس» احساساتنا، فالجواب أن هذا لا يُغيِّر من الأمر شيئاً، بل يكفى أن نقول عن الشيء فى ذاته إنه موجود حتى نقع فى التناقض ، لأن الوجود أيضا مقولة لا تصدق بحسب الفلسفة الكانتية نفسها على الشيء فى ذاته. ثم إذا كانت المعرفة تطبيق المقولات وإذا كنا نطبق مقولة العلية أو مقولة الوجود على الشيء فى ذاته فكيف نقول عنه إنه لا يمكن أن يعرف؟ هكذا ينهار مفهوم الشيء فى ذاته . ونتيجة ذلك ان المعطيات لا تأتينا من مصدر خارجى ولكنها كالصور القبلية من نتاج العقل. والقول إن العالم من نتاج العقل هو موقف المثالية المطلقة .

وينتج عن ذلك أيضاً أنه لا مجال للكلام عن حدود للمعرفة ، إذ لا وجود لما لا يمكن أن يعرف بل إن مفهوم ما هو غير قابل للمعرفة مفهوم متناقض يهدم نفسه بنفسه . وهنا يمكن تطبيق إحدى الفكر الهيجلية : لأننا لا نشعر بحدود أى شيء إلا إذا عرفنا أن هناك فراغا بعده. ولو كان للمعرفة حد مطلق كما يقول «كانْت» لما استطعنا أن نعى هذا الحد لأننا لا نعيه إلا حين نتجاوزه .

ولا شك أنه يجب أن نميز تمييزا واضحا بين ما ليس معروفاً وبين ما لا يمكن معرفته آذ لا جدال فى أننا نجهل أشياء كثيرة ، ولكن جهلنا الفعلى بالعالم لا يسوغ القول بوجود لا يمكن أن يُعْرف، ليس فى العالم إذن ما لا يستطيع العقل الإنسانى أن يعرفه مهما . نطلق عليه من أسماء كاللامتناهى أو المطلق أو الشيء فى ذاته .

ولكن إذا كان كل وجود متعلقا بالفكر ، وكان الشيء فى ذاته الذى لا يمكن أن يعرف مستحيل الوجود بصورة مستقلة عن الفكر، فهل نقول عن

«الواقع» أيضا إنه غير قابل للمعرفة؟ الجواب أن الواقع ذو طبيعة منطقية، وهو بالتالى ليس منفصلا عن الفكر . إنه إذن قابل للمعرفة .

كانت الفلسفة اليونانية عبارة عن دراسة المادة فجاءت فلسفة العصر الوسيط عبارة عن فلسفة الروح فألفت الفلسفة الحديثة بينهما فى وحدة عليا كانت الفلسفة الهيجلية آخر وأكمل صورها طبعاً .

حيث ينتهى الروح المطلق إلى تمام الشعور بذاته ويجمع فى تركيب أعلى وأخير بين الأضداد التى صادفها فى تطوره مذ كان وجوداً ولا وجوداً فى آن واحد. ان الفلسفة الأخير زمانها ثمرة جميع الفلسفات السابقة ويجب ن تضم مبادىء هذه الفلسفات جميعا فهى الكل حيث تبقى الأجزاء متمايزة من الله باعتبارها أوقاتا فى تيار التطور وحيث تتلاشى باعتبارها مظاهر الله كما تقتضى وحدة الوجود .